((المدارس الحديثية))

الدراسات العليا /الدكتوراه الفصل الثاني للعام الدراسي ٢٠٢٣-٢٠٢٤

المحاضرة الرابعة : اهم خصائص المدرسة الحديثية في مكة والمدينة

مدرس المادة : أ.د. أنور فارس عبد

اهم خصائص المدرسة الحديثية في مكة والمدينة

خلاصة المدرسة الحديثية في مكة والمدينة

الحمد لله الّذي بنعمته تتمّ الصّالحات، أحمده تعالى على منته عليّ بإتمام هذه الدراسة الّتي عَملتُ فيها على جمع ما يتعلّق بالمدرسة الحديثيّة في الحرمَيْن ؛ مكّة والمدينة في القرنين الأوّل والثّاني الهجريَّين، وما تركَتْه هذه المدرسة من أثرٍ كبيرٍ على الحديث وعلومِه، بحيث غَدت المدارس الإسلاميّة كلّها شُعلةً من نورها وقبساً من مشكاتها، وما آليتُ جهداً في سبيل تَتَبُّع مرويّاتٍ تُعين على إبراز جوانبَ مضيئةٍ ومهمَّةٍ من هذه المدرسة، و أُجمل أهمَّ ما تَمخّضت عنه هذه الدّراسة في النّقاط الآتية :

١- تجلّى من الدّراسة عُلوّ شأن المدينة النبويّة في العلم في القرنين الأوّل والثاني ، ورسوخُ علمائها وتقدّمهم في خدمة السنّة النّبويّة، وأنّ بقية الأمصار إنما يتفاضل العالِم منهم بكثرة سماعه واتصاله بعلماء المدينة.

٢- وأنّ مكّة المشرفة إنّما نَما العلم بها وازدهر بالصّحابي الجليل عبد الله بن عَبّاس ﷺ، وأنّ العلم قَبله شِبهُ معدوم بها .

٣- ثمّ إنّ أكثر النّاس إفادةً من علم الحجازيّين هم أهل العراق، كما يتّضح ذلك من النّظر في أصحاب الصّحابة المكثرين في الحديث، لأنّ التّواصلَ العلميّ بين البلديْن كان مبكّراً جداً، وأنّ أقلّ البلدان نهضةً علميّةً وأضعفها تواصلاً بالحجاز في ذلك العصر هو اليمن، إذ كان العلماء به أهلَ غزوٍ وجهادٍ وعبادةٍ ولم يشتغل كثيرٌ منهم بالعلم، ولم يستقروا باليمن فَيُنسبوا إليه.

٤- وقد تميّز الحفاظ المكثرون في ذلك العصر بمناهجَ فريدةٍ في حمل العلم وتدوينه، وما كان لديهم من همَّةٍ عالية ونَهْمٍ شديد في إبلاغه ونَشره مِمّا ساعد على انتشار علم الصّحابة وكبار التابعين، وبقائه بين الأمّة نبراساً مضيئاً تستنير به في مسيرتها العلميّة والحضاريّة جِيلاً بعد جيل، وقبيلاً بعد قَبيل.

٥- وشغلت مرويّات الصّحابة المكثرين حَيّزاً كبيرا في (الصّحيحين) و(السّنن الأربعة)، واعتنى مصنِّفُو هذه الكتب بنقلها مِن أصحّ طرقها وأقوى أسانيدها، فأكثروا منها إكثاراً واضحاً جلياً.

٦- كما أبرزت الدراسةُ مكانةَ الحرمين في صحّة الأسانيد وقوّتها ومتانتها، وأنّ جُلّ مخارج ما نُعت بأنّه مِن (أصح الأسانيد) إنّما هو منهما لا سيّما المدينة؛ فقد حَظيت بنصيب الأسد من هذا، وهذه آيَةُ عناية علمائهم بالسنّة الشّريفة، وتمكّنهم من حفظها وضبطها حتى حازوا أَعلى مراتب الصّفات المقتضية لقبول الرّواية وتوثيق رُواتها.

٧- كما تجلّى من الدّراسة ندرةُ ما وُصف من أسانيد الحجازيين بكونه (أوهى الأسانيد)، إذ ليس يُذكر للمدنيين من هذا القبيل إلاّ إسنادٌ واحدٌ، وللمكّيّين كذلك إسنادٌ واحد، وكلا الإسنادين لا أثرَ له في الكتب الستّة بل لم يظهر له أثرٌ في الكتب المعنيّة بذكر نماذج من مناكير الرّواة الضعفاء، مما يدلّ على أنّ ما وَصل إلى المصنّفين الجامعين من أحاديث الحجازيّين الصّحيحة والحسنة يمثّلُ ثروةً ضخمةً أتاحت لهم فرصة انتقاء أصحّ ما عندهم وتجنّب الضّعيف الواهي الّذي لا يمثّلُ أيَّ قيمةٍ علميَّةٍ في روايات أهل الحجاز عموماً .

٨- وفي مجال التّدوين والتّصنيف، تبيَّن من الدّراسة أنّ أحاديث النّهي عن كتابة الحديث النّبوي لم يصحّ منها شيءٌ سوى حديثٍ واحدٍ، وهو حديث أبي سعيد الخدريّ ﷺ عند مسلم على خلاف في ثبوته، وهو أيضاً عند المحقّقين حديثٌ منسوخ بأحاديثِ الإباحة والإذن بالكتابة، وهي كثيرةٌ، وتفوق حديثَ أبي سعيد الخدري صحَّةً وقوّة.

٩- كما جَلَّت الدراسةُ أيضاً أنّ مَن رُوي عنه الامتناعُ من كتابة الحديث أو الكتابة عنه من الصّحابة والتّابعين لم يكن ذلك منهم بسبب حديث النّهي، وإنما كان الحاملُ لهم أسباباً أخرى غير النّهي الوارد، كالحرص على الحفظ وعدم الاتّكال على المكتوب، أو لخشية كتابة آرائهم واجتهاداتهم العلميّة. كما أنّ هناك من الصّحابة من نُسب إليه الامتناع من كَتْبِ الحديث ولم يصحّ ذلك عنه؛ كأبي بكر الصّديق ﷺ وعمر بن الخطّاب ﷺ، وهناك من لم يَكن النّقل عنه صريحا في المنع، كعبد الله بن عبّاس ﷺ.

١٠- وبرزت في هذه الفترة قضايا علميّة ذاتُ علاقةٍ بتوثيق السنّة وضبطها مما كانت الأمّة بحاجةٍ إلى تأصيله وتوضيحه آنذاك؛ من قَبِيل قضيّة (البحث عن الإسناد) و(طرق التّحمّل) و(صِيَغ الأداء) و(الرّواية بالمعنى) و(اختصار الحديث) وعالجوا هذه القضايا وَاضعين لها أُسُساً منهجيَّةً سليمةً، بعضُها من تقريراتهم، وبعضُها من تطبيقاتهم في التّعلّم والتّعليم (التّحمّل والأداء)، فصارت نبراساً لمن جاء بعدهم فروى العلماء أصولَها منهم وبنوا عليها فروعًا مما كانت أعصارُهم في حاجة إليه حتّى اكتمل بناءُ ما بات يُعرف بـ (علم مصطلح الحديث) أو (أصول الحديث)، ووُضِعت فيه مؤلَّفات كثيرة، استقرّت بها المصطلحات، وحُدّدت مفاهيمها ومعانيها .

١١- كان عمر بن الخطّاب ﷺ من أوائل من رَسم خُطَّةَ حمايةِ السنّة ومنهج توثيقها لكي تَسير عليها الأمّة والأجيال اللاّحقة، لا سيما بعد فُشوّ الكذب وظهور الفتن في صفوفها وكثرةِ الآراء والمذاهب الخارجة عن جادّة الصّواب. وثبت أيضاً أنّ كثيراً من الصّحابة التزموا بهذا المنهج الْعُمَريّ؛ إذ لم يكونوا أقلّ منه شعوراً بعِظَم الأمانة الملقاة على كواهلهم، وكلّما بَعُدَ الزَّمَنُ عن العهد النّبويّ وازدَادت الوسائط إليه ﷺ كثرةً ازدادت تبعاً لذلك عنايةُ الأمّة بقضايا الجرح والتّعديل، ولا سيّما مع تَتابع الفِتن وتَشَعُّب الأهواء وكثرةِ الدّعاة إلى الباطل.

١٢- كان غيرُ واحدٍ من رجالات هذه المدرسة الحديثية هم أوائل مَن عُرفوا بمبدأ انتقاء الشّيوخ والتثبت في الأخذ، وتجنُّبِ غير الثقات، كعمرو بن دينار (ت١٢٦هـ) والقاسم بن عُبيد الله بن عمر (المتوفّى في حدود ١٣٠هـ) ومالك بن أنس وغيرهم رحمهم الله جميعاً. واشتهروا كذلك بانتقاد الأحاديث ؛ لِكون الغَثِّ فيهم كثيراً، والكذب بينهم واضحاً، لكنهم قد أثنوا على من خَبَرُوا حالَه ، وعرفوا فيه الصّلاح والصّدق والعلم والفَضْل، وأخذوا عنهم وحثّوا على قَبُول مرويَّاتهم.

١٣- قلّ الكلام في رجال الحديث ونَقلة الأخبار في عصر الصّحابة والتّابعين لقلّة الضّعف في متبوعيهم، ولكون مجتمعِ الحجاز يومَها أنقى المجتمعات الإسلاميّة وأخلَصها من شوائب البدع والخرافات والمعتقدات الباطلة، ولكن في حدود خمسين ومائة تكلّم طائفةٌ من الجهابذة في التّوثيق والتّضعيف بكلامٍ يسير جداً قياساً لمن جاء بعدهم من النّقّاد، ومن أوسعهم كلاماً وأكثرهم نقداً للرّواة الإمامان الكبيران؛ مالك بن أنس بالمدينة وسفيان بن عيينة بمكّة، فتكلّما في طائفةٍ من الرّواة بكلام يَلُوح عليه العلمُ والخبرةُ والإنصافُ والعدل.

١٤- قد أطلق غيرُ واحد من العلماء خلوّ الحجاز في ذلك العصر من الكذّابين والوضّاعين؛ لكثرة الصّدق وفشوّ التّديُّن والورع فيهم، لكنْ مع ذلك وُجد في القرن الثّاني الهجري من رُمي مِن رواتهم بالكذب والوضع، إلاّ أنّ النَّظر فيهم ودراسةَ كلام الأئمّة النّقاد فيهم أبانت عن قلّة عددهم، فلم يتجاوز عددُ الموقوف عليهم ثلاثين راوياً، من بين مِئات الرّواة الذين عاشوا هذه الفترة، وبهذين البلدين، ولم تَثبت التُهمة بالكذب إلا في حقّ عشرة منهم فقط، والباقي ما بين ضعيفٍ جداً، وهم (١٤) راويا، وضعيف صالحٍ للاعتبار، وهم ثلاثة رواة، وثلاثة في حَيّز القبول، واحد منهم بمرتبة الثّقة، والآخران بمرتبة الصّدوق.

١٥- كما تبيّن من دراسة الرّواة المذكورين بالتّدليس أنّ ما ذكره بعضُ العلماء من أنّ التّدليس ليس منهجاً متَّبعاً للحجازيّين كلامٌ سليمٌ وقاعدةٌ صحيحةٌ، لم يخرج منها إلاّ النّادر اليسير الذي لا تخرم معه القاعدة، فالأصل العلميّ الصّحيح في أحاديث أهل الحجاز ـ لا سيما في القرنَين الأوّل والثّاني ـ السّلامة من التّدليس إلاّ حيث ثبت بالدّليل الّذي هو أقوى من مجرّد القاعدة المذكورة فَيُعمل به في محلّه دون المساس بصحّة القاعدة وسلامتها، كبعض حالات أحاديث ابن جريج، وأحاديث محمد بن إسحاق.

١٦- وهذا خلافُ ما كان الأمر عليه في الحجاز؛ فإنّ التّدليس ليس يُعرف من مذهب الحجازيّين، أو هو فيهم نادرٌ جداً لا يشكِّل منهجاً سائداً بَينَهم، صرّح بذلك غير واحدٍ من العلماء:

أ -قال الإمام الشافعي : ((ولم نَعرف بالتّدليس ببلدنا فيمن مَضى ولا مَن أدركنا من أصحابنا إلاّ حديثاً. ((قوله : (إلا حديثاً) معناه : إلاّ ما حُدِّثوا بِه، وسَمعوه من مَشايخهم.

ب -وقال الحاكم أبو عبد الله النيسابوري : ((إنّ أهل الحجاز والحرمين، ومصر والعوالي ليس التّدليس مذهبَهم.((

ج -وقال أبو بكر الخطيب : ((أصحّ طُرق السُّنَن ما يرويه أهلُ الحرمَيْن؛ مكّة والمدينة؛ فإنّ التّدليس فيهم قليلٌ، والاشتهار بالكذب ووضع الحديث عندهم عزيزٌ. ((

د -وقال الحافظ ابن حَجر : ((والرَّاجح أنَّ أهلَ المدينة مِمّن بعد الصَّحابة إذا اتَّفقوا على شَيْءٍ كان الْقولُ به أقوى من الْقول بغيرهِ إلاَّ أن يخالِف نصاً مرفوعاً. كما أنّه يُرَجَّح بروايتِهم؛ لِشهرتهم بالتَّثَبّت في النَّقل وتَرْكِ التَّدْليس. ((

١٧- ولكن مع اشتهارِهم بالبُعد عن التّدليس؛ فقد نُسب غير واحدٍ منهم إليه، وعِيب فعلُه عليه، وصُنِّف في عِداد المدلِّسين، مِمّا حملنا على تَتبُّع أسامي الموصومين به منهم، ودراستهم دراسةً مفصَّلةً؛ تهدف إلى كشف حقيقة تلك النّسبة، ومعرفة صحتها من عدمها، وهل كَثُر ذلك منهم بحيث شَكّل منهجاً للرّواية عندهم، أم لا؛ لأنّ لفظ (التدليس) كسائر ألفاظ التّجريح، لا يُقبل إطلاقُه في كلّ راو بعينه إلا بعد النّظر في مجمل ما ذكره الأئمّة في حقّه، وتحرير أقوالهم على ضوءِ قواعد هذا العلم، فقد يُطلَق هذا الوصفُ على راوٍ، ثمّ عند التّحقيق تثبت براءَتُه ، كسائر ألفاظ الجرح تماماً.

١٨- ولما كّان الحجاز يُعدّ لبقية الأقطار الإسلامية مصدراً للمعارف الشرعيّة، ومنبعاً للعلوم النبويّة، وأكبر مركزٍ للحركة العلميّة في الحديث والفقه والتّفسير كانَ لزاماً على الصّحابة أن يستشعروا عِظَم المسؤوليّة الملقاةِ عليهم، وأن يَقوموا بواجبهم تجاهَ الأمّة الإسلاميّة من تعليمهم وتفقيههم، وتفهيمهم دينَهم، فلذلك لم يألوا جُهداً في سبيل تحقيق ذلك، فكانت خلافةُ عمر ﷺ عَهْداً برزَتْ فيه بِعِثَاتٌ تعليميّةٌ ينّظمها عمر ﷺ إلى غيرِ واحدٍ من الأقطار الإسلاميّة لتعليم الناس، وهو في ذلك سائر على النهج النبوي في سياسة التعليم في عهده ﷺ.

١٩- كما رافَق خروجَ الصّحابة إلى الجهاد في سبيل الله النّشَاطُ العلميّ والدَّعويّ في البلاد المفتوحة، فَلم يحملوا معهم السَّيف فقط، وإنما كانوا يحملون السّيف والعلمَ معا، فَامتزَج الجهادُ بنوعَيْه؛ جهاد السِّنانِ، وجهاد الدَّعوة واللّسان.

٢٠- وفي عصر التّابعين كان لزاماً على الواحدِ منهم إن أراد أن يتّسع علمُه، وتكثرَ أسانيدُه أن يرحل إلى الأمصار الإسلاميّة؛ نظراً لتفرّق الصّحابة، ونُزوح كثيرٍ منهم من المدينة النّبوية إلى سائر الأمصار المفتوحة، نشراً للعلم، وجهاداً في سبيل الله، فكثرت الرّحلةُ في التّابعين.

٢١- والنّاظر في أخبار تابعي أهل الحجازِ يرى أنّ رَحلاتهم لطلب العلم نادرةٌ جداً؛ إذْ العلمُ لم يزل متوافراً فيهم، ولم تَزل الوُفود أيضاً تأتيهم في المواسم، فأغناهم ذلك عن الرّحلة إلى بلادٍ أخرى للاستزادة من العلم، فكانوا يأخذون من شيوخِهم ، ويأخذون من عِلم سائر الأمصار وقتَ مجيئهم للحجّ أو العمرة، فصارت الغايةُ من رَحَلاتهم نشرَ العلم والدّعوة والجهاد، وأحياناً قليلةً يرحلون إلى أمصار أخرى لأداء مهمّة علميّة كلِّفوا بها رسمياً، فسكنَ بعضُهم تلك الأمصار، فأخذ منهم أهلها، وانتشرت علومُهم بين ربوعِها.

٢٢- شهدتْ مكّةُ والمدينةُ في القرن الأوّل والثاني رَحلاتٍ علميَّةً عديدةً قام بها العلماءُ وطلاّب العلم لمكانتهما العلميّة الرفيعة الّتي لا مثيل لها في كافَّةِ أرجاء العالم الإسلاميّ، مع ما بِهما من قدسيَّةٍ وشرفٍ؛ بوجود بَيت الله الحرام مَهوى أفئدة المؤمنين، وما شَرُفت به المدينةُ النَّبويّة من نور النّبوة، وكونِها عاصمةَ الإسلام الأولى. وغالباً ما كانت الرّحلةُ إليهما تتمّ في أثناء المواسم، ويوجدُ من العلماء من يَقصدهما ابتداءً للعلم، وقد يحصل الأمران معاً.